راعية هاتور

صعدنا إذن إلى ذهبية صديقنا الخليل ، ثم أدركنا السيدات والسادة ومن بينهم فاتنة سميراميس إليها . وألقت الفاتنـــة على الأشيب نظـرة معسولة ردت إليه صوابه . وتلقى الخليل الفاتنة وأصحابها باسماً قرير العين ، وتقدمهم إلى أماكن وثيرة أعدت على ظهر السابحة . وأدرت طرفى فيما حولى فألفيت مقصفاً بلغ من الكمال أن كان بشيراً بليلة قَصَفٍ تثير فى النفس أحلى المنى . وأخذنا من السيدات والسادة مجلساً كمجلسنا منهم فى الفندق ، ثم كنا معهم أقل كلفة بعد ما قدمنا صديقنا لهم وأتم التعارف بيننا وبينهم . وسألت الفاتنة صديقنا الأشيب باسمة : هل نسى من تاريخ الآشوريين حديثاً أو خبراً . وكان أصحابها من جيراننا الشرقيين المتقبعين أباً عن جد حتى لا يتميز الإفرنج عنهم فى قليل ولا كثير ، وحتى صارت عربيتهم إلى العجمة أو كادت . وبينا نحن نتحدث أقبل علينا آخرون صعدوا من زورق ، وآخرون جاءوا من ناحية الشاطئ . ومع هؤلاء جاءت جماعة يحمل أحدهم قيثارة والآخر رقا والثالث عوداً والرابع كمنجا . وعرفنا فى العواد مغنياً رقيقاً تعرفه مجامع الأصدقاء ولا يعرف المحافل العامة . وفى أثر هؤلاء أقبلت فتيات ذات ظرف وقسامة ودل ، هن الساقيات الراقصات المحييات فى لجة القمر وفوق لجة الماء خيالات عذارى البحار . ولما تكتمل الساعة حتى كانت الذهبية فى عالم يموج بالرجال والنساء تغمرهم جميعاً غلالة رقيقة من ضياء فضى وهواء عذب يحمل معه قرًّا . وفى مثل هذا العالم يتسرب إلى النفس إحساس الرضا والمسرة ، وتجرى فى العروق

آمال حلوة مبهمة ، ويستشعر الإنسان بما سيكون من أسباب الطرب والنعيم . ويزيد فى هذه الأحاسيس والآمال والمشاعر ما يكون بين الجمع من تبادل ابتسامات وتحيات ونكات . والحق أنك كنت ترى الأشيب قد ملكه كل شبابه ، فضحكت عيناه وافتر ثغره ونضح بالبشر محياه ، ووقفت نظراته عند فاتنة سميراميس لا تتحول عنها إلا لترتد إلى قرارة نفسه تزيده ذوقاً لسعادته ونعيمه . أما صديقنا الشاب فكان لا يستقر فى مكان ، بل كان دائم الانتقال يحيي من عرف ويقدم نفسه لمن لم يعرف ، ويتبرع بأجمل الثناء لكل ذات دل وسنى . وأما نجيّ أبيس فجلس إلى أصحابنا السيدات والسادة يسمرون . وفيما هم فى سمرهم دلف إليهم الخليل يكرر ما يتوجه به لكل زائريه من شكر ومديح . قال صاحب السيدات والسادة محدثاً الخليل ومشيراً إلى نجيّ أبيس :

– لقد كان صاحبنا وإخوانه يتحدثون فى سميراميس بحديث آلهة آشور وآلهة مصر الفراعنة . فليتنا عرفنا شيئاً من أمر حديثهم قبل اليوم ، فجعلنا من ليلتنا هذه ليلة فرعونية ، أو ليتنا يتاح لنا ذلك فى وقت قريب .

قال الخليل :

– ولم لا تكون ليلتنا هذه الليلة الفرعونية ؟ إن لدينا فى هذه الذهبية من العدة ما يجعل منها إن شئتم معبد الكرنك ، أو إن شئتم قصر الفرعون ، أو ما تشاءون من صور حياة آبائنا الأقدمين . وبين أولئك الفتيات اللاتى حضرن من تمتّ بروحها وبقسمات وجهها وبنظراتها وبكل ما فيها إلى عباد آمون بأمتن نسب . وإليها يرجع الفضل فى عدة الذهبية ، كما يرجع إليها الفضل فى غرام تأصل فى نفسى بكل حياتنا المصرية . وسترون أنا لن نجد نصباً فى إعداد ذهبيتنا إلا ما يجد معد المسارح فى تهيئتها لرواية جديدة .

قال الخليل هذا وأجال بصره فى الحاضرين حتى استقر فى ناحية ، ثم نادى :

– إلىَّ يا راعية هاتور .

– لبيك يا حبيب آمون ورع والآلهة السالفين ! هل لنا فى ليلة فرعونية ؟

وكأنما كان نداء الخليل إشارة ذات معنى ؛ إذ أقبلت إلينا تشق موج الحاضرين فتاة هيفاء سمراء ذات دل وحور وذات قسامة تعيد إلى النفس صورة الفرعونة نفرتيتى ورأسها الساحر . وألقى نداء الخليل وجواب الفتاة وإقبالها صمتاً خيم على الجمع الذين التفتوا كلهم إلى ناحية راعية هاتور فى نظرة إعجاب من الرجال واستيعاب نقاد من النساء . واستقبلت الفتاة القمر فى طريقها إلينا ؛ فكانت أشعة عاشق السماوات هالة زادت ابنة الفراعنة رقة وسحراً . وتلفت الأشيب إلى ناحيتها مع من تلفتوا ، ودارت حدقتاه معها فى بطء دل على ذوقه جمالها . وأدرت ناظرى لمحة فإذا فاتنة سميراميس تحدج الأشيب والراعية ، وكأنما دب من الغـــيرة إلى نفسها ما دعاها إلى أن تلفت غيرها عن هذا المفتون بها ، حتى لتخشى أن تفتنه عنها . والصمت مخيم ، والفتاة تقبل ، والأعين مشدودة إليها ، والخليل يفكر فى الليلة الفرعونية ، ويكاد ذلك يطول لولا أن بدأت الفتيات والنساء حديثهن وتهاتفهن كأشهى ما يستطعن ليصرفن الأنظار من جديد إليهن ، ولكى لا يحسب أحد من الرجال أنهن أقل من تلك الراعية سلطاناً .

قالت إحداهن :

ما أعظم سرور الراعية بدعوة الخليل لليلة الفرعونية ! فهى لا تتقن رقصاً كالذى تقوم به فى دورها هذا . وأكبر الحظ فى إتقانها إياه أن ملابسه تخلع عليها شيئاً من الجمال .

وأجابت جارة لها :

– يجب أن نحمد للخليل على كل حال . فالضيف أسير الحلىّ .

وأردفت كل واحدة عبارتها بابتسامة تجلت خلالها ثناياها الحلوة العذاب فأمتعت النظر ، كما أمتع صوتها السمع ، واستعاد هذا وذاك التفات من حولهما ، كما استعادت غيرهما التفات من حولهن .

وتداول الخليل والراعية وجيرانهما فيما يصنعون ، ونادى هو بالخدم وسار معهم خلفها إلى الطابق الأسفل ، ثم إذا بهم يصعدون من جديد وإذا ستور تمد ، وإذا عيوننا تشهد صورة قصر فرعونى مشيد ، وترى خلال جدر هذا القصر عمداً تذهب إلى اللانهاية كأنما هو يطل على معابد الكرنك من ناحية ، كما ظل يطل من الناحية الأخرى على النيل ورياضه النضرة . ودعانا الخليل أن نهبط وراءه ، وأشار إلينا جميعاً أن ندخل إلى غرف الذهبية كى يلبس كل منا الرداء الفرعونى الذى يصادفه . وعدنا إلى القصر المطل على الكرنك ، فإذا الحاضر الذى عرفنا يختفى ، وإذا عصر سلف يبعث ، وإذا الحفدة تتقمصهم أرواح الأجداد وإن ظلوا فى ريعان الفتوة وإهاب الشباب . وجلسنا إلى موائد ألـقى عليها بنسيج العصور الغابرة أيضاً . ومدت عليها ألوان الشراب فى أباريق من فضة . وبقى صدر المكان خالياً تخطر فيه أوانس زانتهن راعية هاتور وقد اتشحت بثوب أبيض انعقدت أطرافه بين ثدييها فى صورة الوردة ، وظل بادياً من خلاله تخطيط جسمها ، ولبست على رأسها شارة إيزيس قرص الشمس مقتعداً قرنى هاتور ، وأمسكت بيدها مفتاح الحياة . واحتذت حذاء راقصة شد إلى رجليها بسيور من فضة . ودار الخدم يصبون الشراب فى أكواب من بللور صنعت على صورة زهرة اللوتس ، وسارت وراءهم فتاة أمسكت بيدها صندوقاً صغيراً على صورة صندوق مومياء ظهرت تحت غطائه مومياؤه ، وجعلت الفتاة تكشف عنها كلما وقفت إلى مائدة فرغ الخدم من صب

الشراب فى أكوابها للمحتسين .

قال الأشيب وقد لبس لباس الراهب :

– ما أكثر ما يحيط بحياة أجدادنا من أسرار يحتاج فهمها إلى التفكير ! فما بال هذه المومياء تدور بها الغادة الفياضة بالحياة بين جمع مسرة وطرب ؟ وما لهم يذكّرون الناس وهم فى ذرا نعمة الحياة بمصير الحياة المخيف المزعج ، بهذا الفناء فاغراً فاه يبتلع فيه إلى غير عودة كل من ألقى به يم الحياة إلى ناحيته ؟ ! أو ما كان خيراً لو أنهم تركوا ساعات المتاع القصيرة لا تشوبها صورة مريرة ؟

وسمع نجىّ أبيس سؤال الأشيب ، فأسرع إلى جوابه خيفة أن تظل حكمة الأجداد خافية على الحفدة ، أو أن يحسب أحد أنهم فى كمال حضارتهم كانوا يعرفون الفزع أو يهابونه ، قال :

– إن أمر هذه المومياء لا يحتاج ممن عرف حياة السلف إلى تفكير ؛ فأبسط معانيها فى مجلس شراب أنا صائرون إلى مثلها ، فلنغنم كل ما فى الحياة من متاع قبل أن تنفذ الحياة ومتاعها فنكون كهذه المومياء رغبة عن المتاع وزهداً فيه وطمأنينة إلى خلد السكينة الأبدية . وهذا معنى تناوله الناس جميعاً فى شعرهم ونثرهم ، وتناوله الندامى فى أسمارهم . بل لقد أحسب أنه كان لابد أن سيدور بخلدنا لو لم تنبهنا الصورة الفرعونية إليه .

« على أنى أرتاب فى أن يكون هذا المعنى هو ما قصد إليه الفراعنة . ذلك بأن عقائدهم تنفر منه ، وتدلنا على أنهم كانوا يقصدون إلى خير من هذا الخاطر الذى يرد إلى أذهان أبناء اليوم . فهم كانوا لا يرون الموت آخر مراتب الحياة ، ولا يحسبون الإنسان يحرم متاع الحياة لغير سبب إلا انتقاله منها . بل إنه ليجد فى العالم الآخر مثل متاعه معنا أو خيراً منه ما بقى جسمه مصوناً من التحلل مستعدًّا لأن تعود إليه الروح الشقيقة . وهذا

سر تشييدهم المقابر كما نشيد نحن القصور ، وهو سر وضعهم أدوات المتاع فى قصور القبور . أما الروح الشقيقة (الكا) أو الضعف على ما يسميه المؤرخون ، فتعود إلى المومياء التى حفظها التحنيط ، فتسمح لها أن تلذ بمتاع كمتاعها فى الدنيا من غير حاجة إلى أكثر من أن تقع باصرتها على أسباب هذا المتاع . وهى تبقى فى خلدها وتبقى أسباب نعمة الحياة إلى جانبها مستمتعة بها ما بقيت المومياء خالدة على الزمن . فلينهل الناس فى الحياة كل ورد النعيم ، فلن يزيدهم ذلك إلا إمعاناً فى المتاع بهذا النعيم بعد الحياة .

قال الأشيب :

– حكمة بالغة وحق إيزيس . إن لك بعد الحياة ما كان لك فيها . ولم لا ؟ ألسنا دائماً نعيش على ميراث الماضى ، وغداً هو ابن اليوم ، ومشيبنا ذكرى شبابنا ؟ فليس إذن عجباً يوم نذر الحياة أن نظل نحياها وإن على صورة أخرى .

وبينا كان السقاة يصبون الشراب وكان الأشيب ونجىٌّ أبيس يتحدثان كانت راعية هاتور فى شغل بتنظيم ليلتها . استعانت بعدد قليل من أصحابها الذين لبسوا لبس الرهبان والراهبات كي يؤدوا طقوس عبادة إيزيس ، وأوحت إلى غيرهم من ضيوف الحفلة أن يصنعوا صنيعهم وأن يتابعوهم فى كل عملهم . واختفى الموسيقيون خلف ستار وبدءوا يوقعون أنغاماً أشعرتنا أنهم غادرونا وغادروا القصر ومن فيه واختفوا خلال عمد الكرنك يحيون فيه عبادة رع وآمون . فقد كانت بعيدة ، بعيدة ، هذه الأنغام ، وكانت تزداد حيناً بعداً ، ثم تقرب بعض الشىء لتعود فتبتعد من جديد . وكانت كلما قصت جذبت أفئدتنا معها وزادت فى الصمت الذى مد رواقه على المكان مهابة ورهبة . وظلت فى ابتعادها حتىَ امتلأت نفوس الحاضرين

جميعاً قداسة دينية . هنالك بدأ الصوت يرتفع شيئاً فشيئاً مقترباً بذلك منا . وهنالك قام عديد من الحضور فى صفين راهبات ورهباناً ، وارتفعت تراتيل لم تزد على آهات ولكنها كانت متأثرة برهبة المكان ، وكانت بامتزاج أصوات الجنسين مثيرة فى النفس قداسة المعانى الإنسانية جميعاً وفى مقدمتها معانى الخصب والإنتاج .

وتقارب الصفان ، فإذا الأشيب إلى جانب فاتنة سميراميس ، وإذا هو لذلك أشد إيماناً بإيزيس ورع وآلهة أشور وكل من كان له فى معرفة الفاتنة إياه فضل . وتباعد الصفان وختمت التراتيل ، وتابعت الموسيقى أنغامها شجية فى استسلام وحنان ، واندفعت راعية هاتور بين رهبانها راقصة رقصاً دينيًّا ، مقدساً هو أيضاً ، بدت قداسته على أتمها حين رفعت ذراعيها فتشابكت أصابعها فى دعاء واستغفار ، وخطرت فى لجة لجين الضياء يستشف من خلال شفوف ثوبها قواماً لدنا يتثنى فى موج مطمئن مع كل خطوة من خطواتها وخطرة من خطراتها . وكان كافياً أن تقف الراعية لتكون تمثال جمال ورشاقة تتناهبه الأعين فلا يزداد إلا رشاقة وجمالاً . لكن خطراتها بين صفى الراهبات والرهبان على أنغام الموسيقى الشجية زاد الجمال حياة ودفع إلى النفوس أقدس معانى العبادة والإذعان . وأولئك الفتيات اللواتى نفسن على الراعية سحرها فى الرقص الفرعونى كن أكثر الحاضرين نهباً إياها بنظرات الإعجاب والإكبار ، أليس لكل امرأة ما تسحر به الرجال ؟ فلم لا تكبر كل امرأة فى غيرها سحرها لتنال هى أيضاً من إكبار ما لديها ما يزيد الرجال سحراً وافتتاناً ! .

وبقينا فى عبادتنا هذه زمناً ولت الراعية وجهها أثناءه صوب المعبد ، فإذا صوت ذلك العواد يرتفع منشداً فى نغمة كنسية بنشيد إيزيس يختم به هذا المنظر الأول من مناظر ليلة الخليل . وعاد الرهبان والراهبات إلى

موائدهم ، وعاد السقاة يصبون الشراب تتبعهم غادة المومياء ، واكتملت حلقتنا وحلقة أخواتنا السيدات والسادة عدا صديقنا الشاب الذى بلغ من عبادته مبلغ الذهول ، وأعلن على أثر انتهائها أن لا مقيل له من ذهوله إلا أن تباركه الراعية وتتلو عليه الأدعية والأوراد جميعاً . أما نجىٌّ أبيس فقد وجد فى الحفل الفرعونى المحيط به ما دفعه إلى أن يعود إلى الحديث عن إيزيس وعبادتها وأعيادها ، قال :

– ها نحن أولاء نمثل صورة غير دقيقة من عبادة إيزيس فى ساعة متأخرة من الليل ، مع أن عباد إيزيس كانوا لا يعرفون سهراً ولا قصفاً . بل كانوا يذهبون إلى معبدها كل يوم لصلاة الفجر قبل أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود . وكان رهبانها ينتظرون العباد وعلى رأسهم الإمام الأعظم رواقى الطلعة حليق الرأس والذقن مرتدياً ثوباً من التيل الأبيض بسيطاً كل البساطة . وكان هذا الإمام الأعظم يقضى حياته ناسكاً لاهمَّ له إلا أن تطهر روحه بالعلم وبإدمان التفكير فى القدسيات وبتعليمها . وكانت أولى المراتب بعد الإمام مراتب الأنبياء المقربين إلى الآلهة المحدثين عنهم والمتحدثين إليهم . أما الرهبان والراهبات فكان شأنهم أن يعنوا بتماثيل الآلهة يلبسونها ويخلعون ملابسها المكونة من أقمشة نصفها أسود والنصف الآخر أبيض لامع ، للدلالة على أن ما نعرفه من أمر الآلهة يختلط فيه الضياء بالظلمات . وكان هؤلاء الرهبان يلبسون ثياباً أكثر بساطة من ثوب الإمام الأعظم ، تبقى بادية من خلالها أذرعهم وصدورهم ورءوسهم الحليقة . أما الراهبات فكن يلبسن معاطف تنعقد أطرافها على صدورهن كما صنعت راعية هاتور ، تحمل كل منهن فى إحدى يديها وعاء فيه الماء الطهور وفى الأخرى « السستر » آلة القدماء الموسيقية ، يهزونها ليوقظ صوتها الكائنات من سباتها . فإذا جاء عباد إيزيس إلى قدسها

ووجبت الصلاة صعد الإمام الأعظم الدرج إلى تمثالها ، فأزاح عنه ستوره ، فظهرت باهرة فى وقفتها بما عليها من حلى الجوهر الوضاء ، تمسك بإحدى يديها مفتاح الحياة وبالأخرى الماء الطهور . وأمام التمثال يتوضأ الرهبان بالماء ويملسون به على الأتقياء ، ثم يوقدون النار لتحرق ما فى المكان من شر . فإذا طهر كل ما فى المعبد دعا الإمام الأعظم الآلهة فلبت الدعاء . فقدم لها عبادها ما شاءوا من قرابين وضحايا .

« فإذا كان العصر أذن الرهبان للصلاة الثانية كما يؤذنون لصلاة ثالثة هى صلاة ختام اليوم يسدل الإمام الأعظم على أثرها الستور على إيزيس لتطمئن فى لباس الليل حتى صلاة الفجر .

« أما أعياد إيزيس فكانت تقام فى أول الربيع وفى أول الخريف ، وكانت غاية فى البهجة والجمال لولا ما كان يخالط عيد الخريف من أيام أسى على مصرع أوزوريس . فنى الثالث عشر من نوفمبر (السابع عشر من شهر آتور أو هاتور الفرعونى) كان الرهبان يلبسون على رءوسهم صور الطير والحيوان مما يعبد المصريون ، ويذهبون إلى معبد إيزيس فيمثلون أمام الشعب المأساة الإلهية الفاجعة ، يقهر فيها الشر الخير ، وتقوم على أثرها معركة إيزيس وهورس ونفتيس مع سخت ، لتنتهى إلى بعث الخير من جديد دون أن يقهر الشر أو يقصى عن الأرض .

كان الخليل قد جاء إلى جمعنا يحيينا مستصحباً صديقنا الشاب معه حين كان نجىٌّ أبيس فى ختام كلامه يتحدث عن أعياد إيزيس . فلما سمع عبارة النجىّ الأخيرة أراد مشاركتنا فى الحديث فقال :

– ما أكثر ما يفسرون به مدلولات الآلهة القدماء ! أفحق أن إيزيس وأوزوريس وجماعتهما كانوا الخير والشر والصلاح وما إلى ذلك من

صفات ؟ أم كان تيفون البحر ، وأوزوريس النيل ، وإيزيس الأرض وخصبها ، وهورس النبـــات الذى تمخض عنـه ذلك الخصـب ؟ وإن أصحاب هذه الرواية ليؤيدونها بأن مصر كانت فى الماضى يغمرها البحر حتى ما يزال يوجد فى جبالها ومناجمها أصداف وآثار حيوانات بحرية ، وأنه ظل يغمرها حتى دفع النيل بمياهه وبطميه البحر إلى الوراء فأخصب الأرض وأثمرها . أم لهذه الآلهة معان فلكية ، فتيفون هو الشمس المحرقة ، وأوزوريس هو القمر الرقيق المحسن ؟ وأصحاب هذه الرواية يذهبون إلى أن ضوء القمر مخصب يثمّر الحيوان والأرض فى حين تحرق الشمس الحرث والنسل ، ويصلون ما بين الشمس والبحر قائلين إن البحر هو الذى أوقد للشمس نارها ولظاها ، حين تبعث ميـاه الينابيع والأنهر أغنياتها إلى القمر وضيائه . أم أن أوزوريس هو النهار ، وتيفون الليل ، وإيزيس القمر وهورس الشمس ؟ أم هذه كلها صفات الربوبية تجتمع للآلهة متعددين ، وهى بعض صفات الإله الأعلى ذى الجلال ؟!.

وما فرغ الخليل من حديثه حتى صاح صديقنا الشاب :

– والأرباب جميعاً ! إنى لعلى حق حين قلت لكم إن الإيمان يحل من الإنسان محل السليقة من الحيوان . فأرباب من الحيوان ؛ لأن فى الحيوان للناس خيراً ومتاعاً . وأرباب هم علم النصر وغلب الأعداء ؛ لأن فى النصر احتفاظاً بكل ما فى الحياة من نعمة وحرية . وأرباب هم عناصر الطبيعة صاحبة السلطان الأول على الحياة وأطوارها ، وأرباب هم الخير والجمال ولذة الروح فى الحياة . وبهؤلاء الأرباب وبغيرهم من مثلهم آمن أجدادنا ثم آمن آباؤنا . واليوم وقد سخر الإنسان لنعمته غير الحيوان وراض من قوى الطبيعة الكهربا والجو والأثير ، وراض هذه وغيرها من طريق العلم ، فهو يؤمن بالعلم وبها ، وهو فى مظاهر إيمانه جميعاً إنما

يبحث عن مكانة بين كل ما فى الوجود تحفظ عليه الحياة فى أنعم صورها المادية والذهنية والروحية . وليست سليقة الحيوان وفطرته فى الاحتفاظ بالحياة إلا هذا الذى يتناوله إيمان الإنسان . ذلك بأنه هو الآخر يريد الاحتفاظ بالحياة فى خير صورها . فمن الحق إذن أن الإيمان يحل من الإنسان محل السليقة من الحيوان .

كانت فاتنة سميراميس قد ألقت السمع أول ما حدث نجىّ أبيس عن إيزيس وعبادتها وأعيادها . فلما رأته بعيداً عن مثل حديث سميراميس وجمالها ، ثم لما رأت الشاب يتناول بحث السليقة والإيمان ، شاحت عنا بوجهها ، كأنما رأت فيما يقصه المتكلمون حماقات لا تغنى . أحس الأشيب انصرافها عنا فلم يشاركنا فى الحديث ولا أعارنا سمعه بل اندفع يهمس فى أذنها بعبارات رقيقة يصف لها بها رقة هذا الليل وجماله . فلما أتم الشاب حديثه كانت أكواب الشراب تطلب الساقى ليملأها . فأشار إليه الأشيب ، وسرعان ما حضر تتبعه غادة المومياء . فلما فاض الرغاء على حافات أكواب اللوتس قال الأشيب :

– إن لك بعد الحياة ما كان لك فيها . فلنتبادل النخب من هذا الشراب الشهى ، ولنذكر إيزيس بوصفها جميلة يبهر جمالها أفئدة يطير بها الشراب ويطير بها مجلسنا الحلو الظريف ، ولا نضيع هذه الفرصة السعيدة فى قصص الأساطير وفلسفة الإيمان . وإذن هات يا نجىّ الآلهة حديث الجمال وسحره .

وكانت من الشاب أثناء حديث الأشيب التفاتة فإذا راعية هاتور مقبلة ، فأسرع إليها وارتمى عند قدميها قائلاً :

– صدق صاحبنا الأشيب . لا خير فى قصص الأساطير ولا فى فلسفة الإيمان ، وإنما الخير كل الخير فى الجمال وحديثه . وطلعتك ومشيتك وحديثك أدعيتك وكل ما ينبعث منك هو حديث الجمال ، بل هو أنغام

موسيقاه القدسية الساحرة . بالله يا نجيّ الآلهة إلا ما ذكرت لنا من أمر هاتور وجمالها ما يطرب له الجمع ويهش له جمال ساحرات الليلة فيزداد ضياء وإشراقاً . وحق عليك وأنت نجيّ العجل المقدس أن تعطف وأن تستعطف ربك الأعلى على البقرة المقدسة .

قال النجيّ ملبياً دعوة الصاحبين جميعاً :

– لا تحسب يا صاح أن الرمز بالبقرة لهاتور معناه أن هاتور كانت بقرة بالفعل . وإنما كان ذلك رمزاً إلى أن هاتور كانت ربة الخصب كما كانت ككل ربات الخصب ربة الجمال . بل هى فى رأى أكثر المؤرخين صورة من إيزيس غير صورة الوقار وصورة الأمومة وصورة الطيبة . هى من إيزيس صورة الزهرة عند الرومان ، وأفروديت عند اليونان ، وسميراميس عند آشور . وحجتهم فى هذا أن اسم هاتور معناه بيت هورس ، فهى إذن من هورس ما كانت إيزيس فى أمومتها له . بل إن بعض المؤرخين ليرون أن هاتور أقرب فى نسبها لآلهة السماء من إيزيس نفسها أن كان الجمال مصدر الخصب والخلق . ويذهب بعضهم إلى أكثر من هذا ، فيراها أقدم الآلهة ومنبع الحياة ، بل يراها إلاهة الطبيعة وكل ما فيها من صغير وكبير . لذلك كانوا يسمونها أم أبيها وبنت أخيها ، وكانوا يقرنونها إلى الآلهة جميعاً فى كل المعابد ، على أنها فى كل حال كانت عند المصريين زهرة جمالهم المطمئنة نظرته ، اللدن قوامه ، الثابتة أردافه وسيقانه ، كما كانت إلاهة الزينة والتحلى . ولذلك كانت فى كثير من الأحيان تصور امرأة ممسكة بيدها أطواقاً هى أطواق الحب ، ولابسة من الحلى عقوداً وأساور ومشابك وغيرها من أدوات الزينة مما يزيد الجمال براعة وبهراً .

وأمسك النجيُّ برهة ، فإذا الأشيب قد تحركت نفسه إلى حديث الجمال مثلما تحركت من قبل ساعة تناولنا الشاى ، فقال :

– هاتور فى مصر ، وأفروديت فى الإغريق ، والزهرة فى روما ، وسميراميس فى آشور ، كل أولئك كن فى الإنسانية رمز الجمال وتمثال المرأة البارعة . فهل خلق الناس منذ القدم غير المرأة وتمثالها للجمال رمزاً؟ وهل مصدر لإلهام الشاعر ووحى المفكر وفن الفنان ولكل ما يأتيه الرجل من عظيم غير المرأة الجميلة ؟ وبحسب المرأة أن تكون جميلة ليغمر جمالها كل ما سواه من صفاتها .

وكانت راعية هاتور قد أخذت مكانها إلى جانب الخليل ، وكان صديقنا الشاب قد أخذ مكانه إلى جانبها والخليل محنق لذلك يكاد يتميز من الغيظ لولا حقوق ضيافة يجلها ويرعاها . على أنه إذ رأى الشاب يدنو من الراعية يهمس فى أذنها لم يملك إلا أن همس هو فى أذنه :

– لا يملك الشراب يا صاح عليك لبك فيحسبك أصحابك مخموراً .

ونالت هذه الكلمة من أنفة الشاب ، فأراد ألا يلاحظ أحد على وجهه تغيراً ، فاندفع معقباً على حديث الأشيب :

– هاتور والزهرة وأفروديت وسميراميس كلها أسماء لمعنى واحد صاغ له خيال الأقدمين بدائع الأساطير . وإيزيس فى مصر كانت هى عشتروت فى فينيقية وقبرص ، وكانت هى سيرس فى روما . وتوت المصرى هو المريخ اليونانى . هكذا أذكر أنى سمعت . أوليس هذا دليلا على اتفاق الناس فى تصوير صلة ما بينهم وبين الوجود لاتفاقهم فى طرائق النظر لما فى الوجود ؟ بل لقد أحسب مما سمعت عن انتقال إيزيس إلى جبيل بالشام باحثة عن جثة أوزوريس أن عبادة هذه الإلهة انتقلت معها إلى فينقية وقبرص ، وأنها انتقلت من هناك إلى اليونان ثم إلى روما ؛ فكان هذا سبب تشابه الأساطير حول البحيرة الكبيرة التى أسموها بحر الروم ونسميها البحر الأبيض المتوسط . وإذا اختلف هذا التصوير للوجود باختلاف طرائق النظر ، فها نحن أولاء اليوم لا نعرف من أمر أساطير الميثولوجيا القديمة إلا أنها أوهام خيالية تحلو فى

الشعر ولا ظل لها من الحقيقة . مع أنها كانت تمثل الحقيقة الثابتة فى تلك العصور . أو لو بعث ميت من أبناء العصور الفرعونية الليلة وحضر مجلسنا هذا أتراه يشك فى أن هذه الستور التى تمثل الكرنك وعمده وتماثيله إنما هى تماثيل وعمد من حجر ، وأنه فى طيبة لا بين أحضان القاهرة ؛ وفى مكان هذه الأوهام التى كانت حقائق أهل تلك الأجيال أقمنا نحن حقائقنا لتكون أوهاماً عند أجيال تخلفنا . وكل جيل يؤمن بما يصوره لنفسه على أنه الحقيقة ؛ لأن هذه الصورة هى التى تكفل طمأنينته فى الوجود واحتفاظه بالحياة بين عناصر الوجود الدائمة التفانى والتجدد . وإذا صح أن بقى شىء من الإيمان القديم لم يتغير — وهذا ما أشك أكبر الشك فيه — فلن يكون إلا ما يمس حياتنا المادية من طعام وشراب أو يمس آمالنا المبهمة فى خلد هذه الحياة .

استراح الخليل إلى عود الشاب إلى فلسفته فى الإيمان أن صرفته عن الراعية وصرفت عنه الجميلات جميعاً . ولم يعبأ الأشيب بهذه الفلسفة أن كان فى شغل بأحاديث حلوة تافهة مع السيدات والسادة وبالمتاع أعمق المتاع بجمال فاتنة سميراميس زادها لباس الراهبة براعة وسحراً . وأعان على حلو متاعه أن انصرف صاحب السيدات والسادة إلى شرابه ، فأنساه الغيرة وأنساه الافتتان بغير الشراب . ولما رأت الفاتنة من صاحبها هذا الانصراف وألفت فى حديث الأشيب الشهى ما ملق زينتها وجمالها ، زادت عليه عطفاً بأن زادت عليه دلاً . ولم يصغ إلى حديث الشاب إلا نجىّ أبيس . وإذ رأى فيه تجديفاً سببه عدم التعمق فى إدراك حكمة الأقدمين قال :

— لا تصدق يا صاحبى بما تسمع عن كل هذا التطور فى تصوير الإيمان ، ولاتحسب أن الناس انتقلوا فى بضع ألوف السنين القليلة التى يعرفها التاريخ بمقدار ما رويت . فلو أنك عدت إلى فلسفة الأقدمين وقرنتها إلى فلسفة اليوم لرأيت مذاهب الإيمان والشك والإلحاد يعرفها حكماء الفراعنة والإغريق كما

يعرفها مفكرو اليوم وفلاسفته . ثم إنك لو استعرضت عقائد السواد اليوم لرأيت فيها أكثر مما تسمعه فى أساطير الأقدمين وهماً وخيالا . وبين هذه المذاهب الفلسفية والأوهام المحسنة للسواد فى حياته كانت الحقيقة وما تزال ، وإن كانت لا تسلم نفسها إلا لمن أخلص فى البحث عنها حباً فيها وحرصاً على طمأنينة نفسه إليها . وأنت إذا رجعت إلى رأى حكماء الأقدمين من الفراعنة والآشوريين والإغريق والرومانيين رأيتهم جميعاً يقولون إن الحقيقة المجردة وحدها يجب أن تكون غاية حياة الحكيم . وكثيرون من المخلصين دلهم إلهامهم على هذه الحقيقة ، فأذاعوها فى الناس منذ تلك العصور البعيدة ، ثم لم تغير مباحث العلم مما أذاعوا كثيراً ، وأحسب أن الناس ما داموا أناساً ومادامت أدواتهم فى البحث هى حواسهم ، فلن تتغير الحقيقة العليا أمامهم وإن اتسع ميدانها ، وإن عرفوا من أسرارها ما كان معجزاً لهم .

كان أهل القصر الفرعونى بعد نشيد إيزيس قد اطمأنوا إلى مجالسهم ، وعكفوا على شرابهم ، وشغلوا بالحديث الرقيق مع الراهبات ، وكنت لا تسمع لحديثهم أول المجلس إلا هسيساً لا تكاد تميزه . فلما دب ما احتسوا فى أكواب اللوتس إلى خفايا نفوسهم صرت تسمع ضحكات رقيقة محتشمة ، وتسمع نكات تتبادل بين مائدة ومائدة . وأدى هذا إلى زيادة فى التعارف والتفاهم ، وإلى تقارب بين بعض الموائد وبعضها الآخر . وخشيت راعية هاتور أن يطول هذا ، فأومأت إلى الخليل فتركنا فتبعناه بنظراتنا ، فإذا به يهمس فى أذن العواد ، وإذا بفرقة الموسيقى تختفى وراء الستور من جديد . ولفتت هذه الحركة الحاضرين ، فجعل كل منهم يصلح من ملابسه ليعد نفسه للمنظر الثانى من مناظر الليلة الفرعونية ، وإن كان لا يعلم ما سيكون هذا المنظر ولا مادوره فيه إلا كما يعلم ما تخبئ الحياة من مفاجآت ، وإن كان فى مفاجآت الحياة ما يفجع ، على حين كان الجمع ينتظر فى مفاجآت هذه الليلة ما يلذ البصر والسمع .